بطولة ملك

(٣)

التَّحَدِّي والمُنَازَلَة

د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الثُّنَيّان

مكتبة العبيكان

obeikandl.com

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الثُنيّان، عبد العزيز بن عبد الرحمن

التحدي والمنازلة. - الرياض.

٣٢ص، ١٧ X ٢٢ سم (سلسلة بطولة ملك؛٣)

ردمك: X-٤٧٤-٢٠-٩٩٦٠

١- عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، ملك السعودية

٢- السعودية - تاريخ الملك عبد العزيز ٣- كتب الأطفال - السعودية

أ - العنوان ب - السلسلة

ديوي ٩٥٣،١٠٥ ١٨/٤٠٨٤

ردمك: X-٤٧٤-٢٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٨/٤٠٨٤

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م

حقوق الطبع محفوظة للناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

obeikandl.com

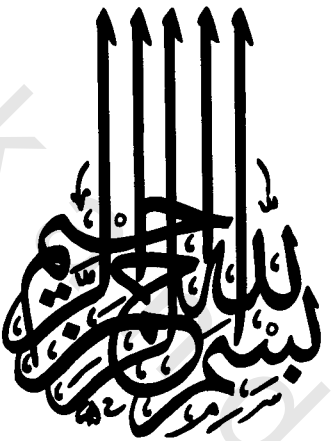

obeikandl.com

obeikandl.com

التَّحَدِّي والمُنَازَلَة

قَـالَ الملكُ البطلُ: انطلقتُ أنا وعشـرون من الخيَّالة بعـد أن أخـذَ التُّركُ خيامَنا.

قال الريحاني : إلى أين؟

فأجاب البطل ضاحكاً: انهزمنا، هربنا.

أهوالٌ وأخطار، واعتـرافٌ بشجَاعَـة الشجعـان، وإقـرارٌ بشدة الأعداء، وتلْكُم الحربُ. قالَ عمرُو بنُ معديكرب:

الحـــربُ أوَّل ما تكـونُ فُتيَّـةً ... تسعَى بزينَتِها لكُلِّ جَهُـولِ

حتَّى إذا حميَتْ وشَبَّ ضِرامُهـــا ... عادَتْ عَجوزاً غيرَ ذاتِ خَليلِ

شمطاءَ جزَّتْ شعرَها وتنكَّرَتْ ... مكروهةً للشَّمِّ والتقبـــيلِ

إنَّها الحربُ؛ كرٌّ وفرٌّ، يومٌ لكَ ويومٌ عليك. هذه حالُ الملك المؤسِّس، ذاقَ حلاوةَ النصر، واكتَوَى بنار الحرب، وجُرِحَ وأصيبَ، ومشَى حافياً، وتقدمَ الجنودَ، ورمَى بنفسه في المهالك، وأوردَ ذاتَه المخاطر.

فمـا إن عادت الـرايةُ السعوديةُ، وقضَى الملكُ البطلُ على نفوذ ابن

رشيد في العاصمة الرياض، حتى تسابقت المدنُ والقبائلُ تعلنُ الولاءَ والطاعةَ للملك القادم، وتأتمرُ بأمره، وتنضمُّ مع جيوشه المحاربة. وسارَ بنفسه يقودُ الكتائبَ، وتوالت التحدّياتُ، وتعدَّدت المُنازَلاتُ.

وكان أمامَ الملك مهمّاتٌ جسامٌ، وأهدافٌ وغاياتٌ، وخصومٌ شدادٌ، وأطماعٌ تحدقُ به من كل صوب، وبُغاةٌ يقطعون الطريق، وجهلٌ وخوفٌ، وتشرذمٌ وتشتُّتٌ، وإماراتٌ وزعاماتٌ.

وكانت همتُه عظيمةً، وإرادتُه جسيمةً، يَنشُدُ إعادةَ المُلك، ويطلبُ توحيدَ الوطن، ويرجو جمعَ الأمة، ويؤُمُّ الجيوشَ الزاحفةَ، ويتقدمُ الرجالَ الهاجمة، وكأَنَّ المتنبِّي يقصدُه بقَولِه:

وسعَى فقَصَّرَ عن مَداهُ في العُلا
أهلُ الزَّمانِ وأهلُ كُلِّ زَمانِ
تَخِذوا المجالسَ في البُيوتِ وعندَهَ
أنَّ السَّروجَ مجالسُ الفتيانِ

وكانَ الخصمُ الأولُ ـ ابنُ رشيد ـ يستهينُ في بادئ الأمر بهذا الفارس القادم، وهذا النجمِ الطالع، وكانَ همُّه ابنَ صباح، وهدَفُه احتلالَ الكويت.

وجاءَت الأخبارُ تَترى، والرواياتُ تقولُ: إنَّ ابنَ سعود قويٌّ الشَّكيمة، صلبُ الإرادة، ماضي العزيمة، امتدَّ نفوذُه، وعظُمَ سلطانُه، وعلا شأنُه، وتسابقَ الناسُ حولَه.

وذُهِل ابن رُشيد، وأصابَه الذعرُ، واضطربَ من هذا الخَصم الجديدَ، وجاء يستحثُّ الخُطى، وجيوشُه تتدافعُ، وقواتُه تتسابقُ.

وتوجَّه قاصداً الرياضَ، وهدفُه القضاءُ على الملك عبد العزيز، ولكنْ هيهاتَ هيهاتَ؛ فأمامَهم هزَبْرٌ جاثمٌ، ودونَهم أسَدٌ صارمٌ، وعقلٌ مدبِّرٌ، وقلبٌ ثابت، إنه كمَا قالَ أبو فرَاس الحمدانيُّ:

وَقُورٌ وأحدَاثُ الزَّمان تنوشُني
وللمَوت حَولي جِيئَةٌ وذهابُ

ووصلَ الجيشُ الزاحفُ من حائل إلى القصيمِ، وتغلغَل في نجد، وخيَّم في بلدة رغبةَ التي تبعدُ عن الرياض إلى الشمال مائةً ونيفاً من الكيلومترات، وأقام فيها شهرَين، وبات يتحرَّى ويتحسَّسُ عن الملك عبد العزيز؛ كيف قواته؟ ومن أينَ أنصاره؟

ثم تشجَّعَ، وتقدَّم نحوَ الرياض، وعسكرَ في مكان يسمَّى الحِسي - شمالَ الرياضِ بستين كيلومترًا- وأقامَ فيه أسبُوعَين.

وسلَّطَ الله على هَذا الجَيشِ المرضَ، وحلَّ بهم وباءٌ، تُوفِّي بسببه أعدادٌ منهم.

وكانَت خطةُ ابن رشيد أن يطوِّقَ الرياضَ من جهات متعدّدة؛ فأرسلَ أحدَ رجاله الموثوق بهم إلى القبائل المجاورة للأحساء يستنهضُ همَمَها، وينشُدُ وُدَّها، ويطلبُ عونها على الملك عبد العزيز، ولكنْ أنَّى له ذلك؟! فقد سبقَه رجالُ الملك عبد العزيز، وزارَهُم أخوه الأميرُ محمدُ بن عبد الرحمن، وعبدُ الله بن جلوي، وتمكَّن الرجلان من كَسْب وُدِّ تلكَ القبائل، وكيف لا وآلُ سعود أهلُ مُلك وتاريخ، وبيتُ عزٍّ وفضل، وأسرةُ عدل وكَرم؟!

وتبيَّنَ لابن رشيد أنَّ الملكَ عبدَ العزيز جاهزٌ للمنازلة، قويُّ الإرادة، قد حصَّن نفسَه، وبَنى جيشَه، واتَّضح له عدمُ القدرة على الهجوم على الرياض.

وبعدَ حيرة وقلق قرَّرَ ابن رشيد الرحيلَ، وتوجَّه إلى حفر الباطن التي تبعدُ عن الرياض إلى الشمال بمَيْلٍ إلى الشرق بأكثرَ من أربعمائة كيلومتر، وذلك ليحولَ دونَ وصولَ التموين، ويمنع الأرزاقَ القادمةَ إلى الملكِ عبد العزيز من الكويت.

وأخذَ يفكرُ ويتأملُ ويستميلُ القبائلَ، وصارَ همُّه العودةَ إلى الرياض مرةً أخرَى، فقد صارَ الملكُ عبد العزيز الرجلَ القويَّ الذي يُحسَبُ حسابُه، وتُخشى سطوتُه.

أمّا الملكُ عبدُ العزيز فسرَّه رحيلُ ابنُ رشيد إلى حفر الباطن، وشرعَ على الفور في الاستيلاءِ على الجهات التي كانت تَحتَ سيطرةِ ابن رشيد.

وكانَ الملكُ عبدُ العزيز يتتبَّعُ أخبارَ ابن رشيد، ويعرفُ تحركاته، ويعلمُ أهدافَه، ويوقنُ أنه لا بُدَّ من المنازلة معَ ابن رشيد؛ فقرَّر استدراجَه من الحفر إلى الرياض.

ولهذا أطلقَ شائعةً، وسيَّرَ الرُّكبَانَ برواية عن خلاف بينَه وبين والده، تقولُ الشائعةُ: إنه اختلف مع أبيه الإمام عبد الرحمن الذي قرَّرَ أن يأخذَ الأمانَ لأهل الرياض من ابن رشيد، وأن الملكَ عبدَ العزيز خَالفَه، وخرَجَ ساخطاً غاضباً من الرياض.

وسَرَت الشائعةُ، وجاءَ ابنُ رشيد يستحثُّ الخُطَى نحوَ الرياض، ويهتبلُ الفرصةَ، ويبني على هذا الخلاف الأمانيَّ والآمالَ.

ونزلَ ابنُ رشيد في بنبانَ التي تبعدُ عن الرياض إلى الشمال خمسةً

وعشرين كيلومتراً، وأخذ يتحرَّى هذا الخلافَ، وكيفَ تطورَ؟ وعساه اشتدَّ.

وبعدَ أن سأل وتحرَّى اتضحَ له أنَّ الأمرَ ليس صحيحاً، وأن الخلافَ ليسَ واقعاً، وأن الرياضَ مُحصَّنة، وأنَّ الملكَ عبدَ العزيز خرجَ منها وتوجَّه إلى الخرج.

وأسْقطَ في يد ابن رشيد، وتَحيَّر في الأمر، فهل يهاجمُ الرياضَ المحصنةَ، الرياض الصامدةَ، الرياضَ الكارهةَ، أو يلاحقُ البطلَ الصاعدَ، ويطاردُ الخصمَ الجَسُورَ؟

وهل يا تُرَى يَعود أدراجَه، وفي ذلكَ مهانةٌ وذلةٌ، وانكسارٌ وحسرةٌ؟ وباتَ في حَيرة من أمره، واضطربَ تفكيرُه، ومنَعه الغرورُ والتعالي من الفرار والعودة، وحَجَزه عن الرياض الخوفُ والحذرُ.

وبعد تأمُّل وتدبُّر قرَّر ابنُ رشيد السيرَ خلفَ الملكِ عبد العزيز، وانطلَق إلى منطقة الخرجِ.

ونجحتْ خُطَّةُ الملك عبد العزيز؛ فقد استدرجَه من الحفر، وأبعدَه عن الرياضِ، وجعله في طَوْقٍ بين أنصاره والموالين له.

ووصلَ ابنُ رشيد إلى الخرج، وأقامَ مركزَه في بلدة نَعْجانَ التي

تبعـدُ عن الرياض جنوباً تسـعين كـيلومـتراً، وراحَ يشنُّ منهـا الغـارات على الدّلمِ حـاضرة الخرجِ آنذاكَ، التي تبعد عن الرياض إلى الجنوب مائة كيلومتر.

وظلَّ رجالُه ينهبونَ ويسلبونَ الناسَ أرزاقَهم، ويحسبون أن عبدَ العزيز وقواته بعيدون عنهم.

أمّا الملكُ عبدُ العزيز فقد كانَ يرقبُ الأمرَ، ويرصدُ تحركات ابن رشيد، وقام بإرسال أخيه سعد إلى منطقة الحريق يستنجدُ أهلَها، وراحَ هو إلى الحوطة يستثيرُ همَمَ رجالها، ويقودُهم معَ جيشه إلى المجابهة الحاسمة.

ونجحت الخُطةُ واستجابت المدنُ وأهلُها، وأسرعُوا إلى المعركة، وأقبلَ الملكُ عبدُ العزيز بقواته التي يبلغُ عددُها ألفَيْ مقاتل، ودخلَ بلدة الدلَم، وذلك من بوابتها الجنوبية، وكَمَنُوا للخَصم القادم الذي كانت قواتُه تنطلقُ كلَّ يومٍ للإغارة والسلب والنهب.

وعلَى حين غرَّة فاجَأ الملكُ عبدُ العزيز قوات ابن رشيد في مكان يُسمَّى بالمحمدي، بينَ النخيل شمالَ غرب بلدة الدلَم.

ودارت رَحَى الحرب، واستمرَّ القتال هناك إلى الليل، وأوقع الملكُ

عبدُ العزيز بقوات ابن رشيد الهزائمَ، وكأني به يردِّد قول أبي فِراسٍ:

فلمَّا اشتدّت الهيجاءُ كُنَّا

أشدَّ مخالباً وأحدَّ نابَا

وأمنعَ جانباً وأعزَّ جاراً

وأوْفَى ذمّةً وأقلَّ عابَا[1]

وأدَرك ابنُ رشيد ضعفَه وَخَوَرَه، وعدَم قدرته على المجابهة، فقرَّرَ الانسحابَ والفرار. وقبلَ أن يحلَّ فجر اليوم التالي لهذه المعركة انسحبَ من معسكره، متجهاً شمالاً بعدَ أن ترك النيرانَ موقدةً في ذلك المعسكر؛ تمويهاً لتغطيةِ الفرارِ والهروبِ.

وهكذا انتصرَ الحقُّ؛ فقدْ كانَ الجيشُ التابعُ لابن رشيد مكوَّناً من أربعة آلاف ذلول وأربعمائة فارس، في حين أن الجيشَ السعوديَّ لم يتجاوزْ ألفَيْ مقاتل وأربعينَ خيَّالاً.

وانتهَى اللقاءُ الأولُ بهزيمة ابن رشيدٍ ورحيله، ثم استقراره في حفر الباطن.

---

(١) أقل عاباً: أي أقل عيباً.

أمّا الملكُ المنتصرُ عبدُ العزيز فقدْ هلَّل وكبَّر، وشكَرَ الله، وعادَ إلى الرياض. وصارَ الناسُ في فرح وتهليل بهذا الانتصار.

وهمَّ ابنُ رشيد بمحاصرة الكويت، فأرسلَ الشيخُ مباركُ الصباح إلى الملك عبد العزيز يعلمُه ويستنجدُه. وهكَذا فالدنيا دُولٌ، والدهرُ قلَّبٌ، فقد صارَ مُنجِداً مَن كانَ بالأمس مستنجداً! وباتَ عوناً من كان بالأمس مُعاناً!

ولبَّى الملكُ عبدُ العزيز النداءَ، وسارَ فزعاً إلى الكويت بجيش لا يقلُّ عن عشرة آلاف مقاتل، وهو الذي خرجَ منها بأربعينَ ذلولاً منذ سنتينِ، فرحَّبت الكويتُ بالفارسِ القادمِ، وهلَّلتْ بمقدَمِه، وانضمَّ منها إلى جيشه مَن كانَ قَد جنَّدَه مباركٌ بقيادةِ جابرِ الصباحِ.

وتوجَّهتْ قواتُ المُسْتَنجد والمُنجد للهجوم على خصمهما، ولكنَّ ابنَ رشيد تراجعَ، وأشاعَ أنه عادَ إلى حائل، وهاجمتْ قواتُ الملك عبد العزيز وابن صباح إحدى القبائل التي كانت تُناصرُ ابنَ رشيد.

وأسرعَ ابنُ رشيد إلى الرياض يهتَبلُ فرصةَ غيابِ الملك عبد العزيز، وهو يظنُّ أنه سيتمكن من الاستيلاء عليها.

ووصلَ إلى الرياض، ووجدَها أمنعَ من عُقاب الجوِّ، وأقسَى من الحديد وأمرَّ من الحنظل؛ فقد نهض الإمامُ عبدُ الرحمن بأهْل الرياض للدفاع والذَّود عن حماهم.

وخرجُوا من الرياض، ونازلوا ابنَ رشيد خارجَ السور، وردُّوه خائباً، فصبَّ جامَّ غَضَبه على النخيل، فأتلف بعضاً منها، وعاد أدراجَه مهزوماً مطروداً.

وأرسلَ الإمامُ عبدُ الرحمن إلى الملك عبد العزيز في الكويت، يُبشِّرُه بالنصر ويُخبرُه بما تمَّ، فشكرَ الملكُ عبدُ العزيز الله على هذا النصر، وأخذَ بقيةَ العائلة السعودية من الكويت، وعاد بها إلى مَوطن عزِّها، ومَوْئل مجدها، إلى الرياض.

ثم انطلقَ الملكُ عبد العزيز يوحّدُ الأقاليمَ الشمالية، بعدَ أن ضمَّ الجناحَ الجنوبيَّ، وأخذَ يبسطُ نفوذَه على تلك المناطق التي كانَت تحتَ نفُوذ آبائه وأجداده، ويَبني مجدَ أسرته في الجناح الشماليِّ.

وَغَزا الكثيرَ من القرى والمدن الواقعة شمالَ الرياض، وسيطرَ على أقاليمِ المحْملِ والشَّعيبِ والوَشْمِ وسُدَير.

وانفتح الطريقُ أمامَه إلى القصيم، ذلك الإقليم المشهور بالزراعة،

والفاصل بينَ حائل عاصمة ابن رشيد، والرياض.

وضاقَ الخناقُ على ابن رشيد؛ فقد قَرُبَ الملكُ البطل من حماه، وأخذَ ابنُ رشيد يهاجمُ بعضَ المناطق الواقعة شمالَ الرياض، وبعضَ القبائلِ التي دانتْ للملك عبد العزيز بالوَلاء والطاعة.

وأخيراً قامَ ابنُ رشيد يجمعُ قواته ويُحصِّنُ القصيمَ؛ فَهيَ الميدانُ القادم للمجابهة الخطيرة، وصار يخطِّطُ للمحافظة عليها، وتقوية حاميتها، والدفاع عنها.

أمَّا الملكُ عبدُ العزيز فبعدَ أن توسَّعَ ملكُه، وامتدَّ نفوذُه، واشتدَّ ساعدُه صار يرقبُ القصيمَ، ويخطِّطُ للسيطرة عليها وضمِّها إلى سلطانه.

وبعد أن وزنَ الأمورَ، ورأى بثاقب بصره أنه قادرٌ على انتزاع القصيم من ابن رشيد سارَ بجيش قِوَامُه سبعةُ آلاف من المشاة وأربعُمائة من الإبل، وتوجَّه إلى الغاط، ثم إلى الزلفي وهي مدنٌ تقع شمالَ الرياضِ، وبالقرب من القصيمِ.

وأرسلَ إلى حاكم الكويت الشيخ مبارك بن صباح يسألُه أن يرسلَ إليه مَن كانَ عنده من أهل القصيم.

وكتب إلى زُعماء آل مُهنَّا أمَراء بريدةَ، وآل سليم أمراء عنيزةَ في العهد السعودي يدعوهم إلى التوجُّه إليه بأنصارهم ليتساعدوا ضدَّ الخَصم المشترك ابن رشيد.

واستجاب الجميعُ لندائه، وأقبلوا مسرعين بأنصارهم، وانضمُّوا إلى الجيش السعودي الزاحف.

واجتمعَ الرجالُ في الزلفي، وتكاملَ وصولُهم في أول رمضان سنة ١٣٢١هـ، وكانت سنةً مُجدبةً قليلةَ الأمطار، شحيحةَ الأرزاق. وضاقَ العيشُ بسكان الزلفي وبالجيش السعوديِّ الزاحف. وصارُوا يقطعونَ النخيلَ، ويأكلونَ لبَّها، ولم يكن - والحالةُ كذلك - من المناسب السيرُ إلى القصيمِ.

ولهذا قررَ الملكُ عبد العزيز العودةَ إلى الرياض، أمّا زعماءُ القصيم الذين استدعاهم الملك من الكويت فذهبوا إلى شقراءَ التي تبعد عن الرياض إلى الشمال الغربي بمائة وستين كيلومتراً.

أمَّا ابنُ رشيد فقد رحَل من القصيم إلى العراق يستنفرُ القبائلَ ويستنجدُ الأتراكَ، وأرسلَ أربعَمائة من رجاله بقيادة ماجد بن حمود ابن رشيدٍ إلى مدينة عنيزةَ، كما أرسلَ ثلاثمائة آخرينَ بقيادة حسين بن

جراد إلى فيضة السرِّ.

وحينَ علمَ الملكُ عبدُ العزيز برحيل ابن رشيد هبَّ مسرعاً من الرياض، وواصلَ السيرَ إلى القصيم، ولما تجاوزَ منطقةَ الوشم علمَ بوصول حسين بن جراد ومن معه إلى فيضة السرِّ.

وخطَّطَ الملك عبدُ العزيز لمفاجأة هذه القوات، ومن ثَم طوَّقها في منتصف ليلة ٢٨ من ذي القعدة عام ١٣٢١هـ، الموافق ١٤/ ٢/ ١٩٠٤م، وقضَى عليها.

ثمَّ عادَ إلى الرياض بعدَ صراع ونزاع وقتال وانتصار، وأقامَ في الرياض حتى آخر شهر ذي الحجة عام ١٣٢١هـ، حيثُ سارَ إلى الغرضِ الأكبر، إلى القصيم، وله همةٌ لا تعرفُ الكللَ، إنَّه كَما قالَ المتنبِّي:

على قَدْر أهْلِ العَزْمِ تأتي العزائمُ

وتَأتي عَلى قَدْر الكِرامِ المكارمُ

وكان الملك عبد العزيز ـ وهو الألمعيُّ ذو الرأي والنظر ـ قد أشاعَ أن الرحيلَ نحو الكويت، وأنَّ السفرَ إلى ابنِ صباحٍ.

وانطلقَت الروايةُ، وانتشرت الحكايةُ، وأرسلَ إلى أتباعه من أهل

القصيم المقيمين في شقراءَ أن يوافوه في ثادق؛ لأنه يرغبُ أن يصحبوه إلى الكويت. وبعدَ أن تكاملَ الأنصارُ انحرفَ بهم إلى القصيمِ، وغيَّرَ اتجاهَه.

وفي ليلة الخامس من شهر المحرَّم من عام ١٣٢٢هـ، الموافق ٢١/ ٣/ ١٩٠٤م وصلَ الملكُ عبدُ العزيز بقواته إلى قرب الأسوار الجنوبية من عنيزة، وأمَر آلَ سليم وآلَ مُهَنَّا أن ينطلقوا إلى المدينة، فامتثلُوا للأمر، ودخلوها بسهولة، وكمنُوا لقائد جيش ابن رشيد، وقتلوه، وحاصرُوا رجالَ الحامية في قصر الإمارة.

وأرسلَ الملكُ عبدُ العزيز كتيبةً من رجاله بقيادة عبد الله بنِ جلوي عوناً ومدداً لأهل القصيم، وحين عرفَ رجالُ الحامية من قَبل ابن رشيد ذلكَ سلَّموا أنفسَهم حالاً إلى آل سليم.

أما الملكُ عبدُ العزيز فبعدَ أن صلَّى الفجرَ ركبَ على رأس سرية، وتوجَّهَ نحو المكان الذي كان فيه ماجد الحمود الرشيد، وما إن رأى أتباعُ ابن رشيد الخيلَ منطلقةً نحوَهم حتَّى لاذوا بالفرار، وتبعَهم الملكُ عبدُ العزيز، وقتلَ منهم نحوَ خمسين رجلاً، وهربَ الباقون إلى بريدةَ وحائل، وبذلك عادتْ عنيزةُ إلى الحكم السعوديِّ، وأمَّرَ الملكُ

عبدالعزيز آلَ سليم من قِبَله عليها .

وبعدَ يومين من دخول الملك عبد العزيز مدينة عنيزةَ قدمَ إليه وفدٌ من كبار أهل بريدةَ يخبرُونه بوقوفهم معَه، فسيّر آلَ مُهنَّا إليها، واستقبلهم أهلُ بريدَة بالترحاب والتهليل .

وتوجَّه الملكُ عبدُ العزيز بقواته إلى بريدةَ، وحاصرَ حاميةَ ابن رشيد، ودامَ الحصار قُرابةَ شهرين ونصف الشهر .

ويئسَ رجالُ الحامية، وأيقنوا بالهلاك؛ فابنُ رشيد بعيدٌ عنهم، وولاءُ المدينة وأهلها للملك عبدالعزيز، والملكُ البطلُ مُحكمٌ طَوْقَه، ومُسيطر على المدينة . ولهذا قرَّروا الاستسلامَ. وتمَّت السيطرة على إقليم القصيم، وانضوَى تحتَ الحكم السعوديِّ في ١٥/ ٣/ ١٣٢٢هـ، الموافق ٢٠/ ٥/ ١٩٠٤م

وهكذا اشتدَّ الساعدُ، واتسعت الدائرةُ، وأقبلَ الناسُ زُرافاتٍ ووحدانًا يرحِّبون بالبطل، ويهنئونَه بالنصر .

وبعدَ أن سيطرَ الملكُ عبدُ العزيز على القصيم، وتباشرَ الناسُ بمقدَمه وانتصاره، وهلَّلَ أهلُ القصيم بسيطرته وسلطانه، جاء ابنُ رشيد يدقُّ طبولَه، ومعَه عددٌ كبيرٌ من رجال البادية والحاضرة، وجمعٌ

من القوات التركية، وأربعةَ عشرَ مدفعاً، وكثيرٌ من الذخيرة والمؤن والمال.

وانضمتْ إليه قواتُه التي فرَّت من القصيمِ، وأخبرتْه بما فعلَ ابنُ سعودٍ في بريدةَ.

أمَّا الملكُ عبدُ العزيز فقد تحرَّكَ من بريدة عندما علمَ بتلك القوات القادمة، واستعانَ بالله، وسأله النصرَ والتوفيقَ. وأرسلَ إلى أتباعه من حاضرة وبادية يطلبُ منهم العونَ والمددَ، وتوافدَ الأعوانُ والأنصارُ، وبلغَ الجيشُ السعوديُّ عشرةَ آلاف مقاتلٍ تقريباً.

وفي الليلة الأولى من شهر ربيع الثاني لعام ١٣٢٢هـ، الموافق لعام ١٩٠٤م، التحَم الجيشان في سهل البُكيرية، غربي القصيم، وكان الملكُ عبدالعزيز قد قسم قواته إلى قسمين:

القسم الأول: يتكون من أهالي العارض (الرياض وما حولها) وتولى قيادتَهم مباشرة، وخصصَّهم لِمُقاتلة ابن رشيد ومن معهُ من حاضرة وبادية.

القسم الثاني: ويتكون من أهالي القصيم، ومَنْ لحق بالجيش من القبائل، وأسند قيادتَهم لابن عمِّه عبدالله بن جلوي، وخصَّصهم

لِمُقابلةِ القوات التركية.

ونشبت المعركةُ، وتلاقت الفرسان، والتحم أهلُ الرياض بابن رشيد ومن معه، وتقدم أهالي القصيم يُريدون القوات التركية، ولكن حال بينهم وبين الأتراك، كثيبٌ من الرمال، وظلَّلهم الظلامُ، وسَلكوا طريقاً مُقوَّساً، جعلهم يتركون الأتراك عن يسارهم ويجدون أنفسهم وراء خيام ابن رشيد.

وكانت المفاجئةُ، فبينما الملك عبدالعزيز ومَنْ معه يُهاجمون ابن رشيد ومن معه، إذْ بهم يجدون القوات التركية تُطلقُ نيرانها عليهم وتُقابلهم مع جُموعِ ابن رشيد، واشتدّ الهولُ، وطال القتالُ، واستمرت المعركة، في حَلَك الليل بضع ساعات، وكانت مذبحةً هائلةً. فقد قُتلَ من جيش الملك عبدَ العزيز تسعُمائة مقاتل، فيهم ستُّمائة وخمسون من أهل الريَاض، وقُتلَ من جيش الأتراك نحوُ ألف، وفيهم أربعةٌ من كبار الضباط، وخسرَ أهلُ حائل نحوَ ثلاثمائة، من بينهم اثنان من آل رشيد.

وفي تلك الواقعة أصيبَ الملكُ عبدُ العزيز بشظايا قنبلة في يده اليسرَى، ووقعَ ابنُ رشيد عن فرسهِ وسقطَت الفرسُ عليه فآلمتهُ، ولم تُقْعده.

وكانت نتيجة المعركة غريبةً، فقد انهزمَ فيها القسمُ الأول من أتباع الملك عبد العزيز بقيادته، بينما انتصرَ القسمُ الآخرُ من أتباعه، وهم أهاليَ القَصيم، ومَنْ لحقَ بهم من رجال البادية؛ وذلك أنهم بعد أن ضلوا الطريق، وجدوا أنفسَهم خلف جموع ابن رشيد فضربوها، وغنموا أرزاق باديتها، وأقبلوا على مُخيم الملك عبدالعزيز بعد أن تركَه، وانسحب منه، ووجدوا فيه زُهاء ثلاثمائة من الجيش التركي ففتكوا بهم.

وبعد أن طلع الفجرُ والملك عبدالعزيز في جنوب البُكيرية يبحثُ عن مكانٍ، يُجمع فيه فُلول جيشه؛ إذْ بأصوات البنادق تُطلقُ نيرانها في الهواءَ، ويتبينُ الخبر، وهو انتصار ذلك القسم من جيشه.

وبعد هذه المعركة الشرسة، وما حدث فيها من هول وقتل، أحب الملك عبدالعزيز أن يمتحنَ أهالي مدينتَيْ بريدةَ وعنيزةً، ويتأكدَ من حقيقة رغبتهم في محاربة ابن رشيد، فأرسلَ إليهم قائلاً: اثبُتُوا في مكانكم وإني مستفزعٌ أهلَ نجد، وراجعٌ إليكُم. فكتبوا إليه يؤكدونَ ولاءَهم ويردِّدون حماسَتهم، وأنهم معه في السَّرَّاء والضَّرَّاء.

هذهِ مشاعرُ الآباء معَ حكامِها، وهذه رُوحُ الأهلِ مع سلطانِهم.

يقول خير الدين الزركلي: «سمعتُ متحدثاً من أهل نجد، يقول: لما بلغ أهلَ نجد خبرُ المعركة تحامـوا، أي: أظهر كلٌ منهمٌ حميّتَه وتسارعوا لنُصرَة الملك عبدالَعزيز.

واجتمع عنده في أقل من أسبوعٍ، ما يناهز عشرةَ آلاف مقاتلٍ».

إن هذا الموقفَ من الأهالي يُؤكد الولاءَ والحبَّ، ويُجسِّدُ السمعَ والطاعةَ، ويُصوِّرُ صدقَ المشاعر ونُبل العواطف، ففي مدة وجيزة، تتوافد الجموعُ، وفي غضونِ أيامٍ معدودة، تتسابق الأفواجُ للنجدة، والمساعدة.

وحين تكاملت قواتُ الملك زحفَ بها إلى البكيرية، وكانَ ابنُ رشيد قد تركَ فيها مُؤَنَ الجيشِ وذخائرَه، ورحل إلى بلدة الخَبْرَاء، يريدُ الاستيلاء عليها، ولكن ما إن علمَ بالزحف السعوديِّ حتَّى أرسل ألفاً وخمسَمائة خيَّال بقيادة سلطان بن حمود الرشيد، فتصادمُوا بخيَّالة ابن سعود البالغين ستمائة وخمسين خيالاً، وانتصرَ الملكُ عبدُالعزيز، ودخلَ البكيريةَ، وفتكَ بحامية ابن رشيد.

وطاردت خَيْلُ الملك عبد العزيز قوات ابن رشيد التي لاذت بالفرار.

وتوجَّه ابنُ رشيد إلى الشنانة، إحدى البلدان الصغيرة بمنطقة

القصيم، واتَّخذها معسكراً له. أما الملكُ عبدُ العزيز، فخيَّمَ في الرسِّ، واتخذَها مركزاً له.

وبقيَ الطرفان في موقعَيْهما شهرين، يحدثُ بينهما كلَّ يوم تقريباً كرٌّ وفرٌّ، وتبادلٌ لإطلاق النار.

ومرَّ الوقتُ، وطالَ الزمن، وسَئم الجنودُ البقاءَ وبخاصةٍ فئاتُ البادية التي تطلبُ حسمَ المواقف بسرعة.

وحينَ رأى الملكُ عبدُ العزيز حالَ الجند وقوةَ الصراع وطولَ الانتظار أرسلَ رسولاً - اسمُه فهد الرشودي - إلى ابنِ رشيدٍ يدعوه للصلحِ ويعرضُ عليه الهدنةَ.

وسخرَ ابنُ رشيدٍ من العرض وتطاولَ في القول، وقالَ متهكِّماً متهدِّداً:

من يطلبُ حُكمَ نجد لا يتضجَّرُ، وهل يُصالح من بيده قوةُ الدولة؟ - يقصد تركيا - لا والله، لا صلحَ قبل أن أضرب بريدةَ وعنيزةَ والرياضَ ضربةً لا تنساها مدَى الدهر. وأنتُم يا أهلَ القصيم لا يغرنَّكم ابنُ سعود، لا يغرنَّكم شابٌّ طائشٌ يبغي الدراهمَ يأخذُها لأمِّه الفقيرةِ.

ورجعَ فهد الرشوديّ، وبلَّغ الملكَ عبدَ العزيز مقولةَ ابن رشيد.

وكانتْ سُخرية ابن رشيد وتهديدُه سبباً في زيادة حماسة الرجال مع الملك عبد العزيز، بلْ كان تعاليه وتطاوله سبباً في نفرة أنصاره الذين قالَوا له: هَلَكَت مواشينا، وهَلَك أولادُنا جوعاً، فإما أن نرحلَ جميعاً فنمشي وراءك، وإما أن نرحل نحن، ونتركَك وراءَنا.

فأجابهم ابنُ رشيد: وكيفَ نرحلُ ولا ركائبَ عندَنا لعساكر الدولة؟!

فقالَ رجالُ القبائل: كلُّ قبيلةٍ منَا تقدِّمُ الركائبَ لقسم من العسكرِ.

وقَبِلَ ابنُ رشيد الرحيلَ، وأمرَ أن توزَّع أمتعةُ العسكر أحمالاً على جيشه.

وَبدأ ابنُ رشيد وحاضرةُ جيشه والقواتُ النظامية بالتحرك والرحيل، وشُدّت المطايا، ولُمْلمَت الأمتعة، وركبَ الجنودُ ظهورَ الإبل، وامتطَى الرجالُ الخيلَ، وساروا مُديرين ظُهورهم نحوَ الملك عبدِ العزيز.

وكانَ للملك عبد العزيز عيونٌ ورجالٌ يرصدونَ تحركات ابن رشيد ومَن معه. قلوبٌ زادت حماستُها، وطفحَ هياجُها، يريدون المنازلةَ لهذا الخصمِ العنيد الذي رفضَ الصلحَ، وسخرَ من الهدنةِ.

ولهذا ما أن بدأوا في الرحيلِ حتى فاجأت القواتُ السعوديةُ جيشَ ابن رشيد المرتحل، وتلاقَى الفرسانُ وتقاتلَ الطرفان، وتنازعُوا من

صلاة الفجر حتى غروب الشمس، ثم عاد الملك عبدالعزيز إلى الرس.

وخرجَ ابنُ رشيد من الشنانة مهزوماً مدحوراً، وتوجَّه إلى جهة تُعرف بقصر ابن عُقَيِّل، تبعد عشرين ميلاً[1] عن الرسِّ، وحاصره وراحَ يضربُ القصرَ بالمدافعِ.

وعلمَ الملكُ عبدُ العزيز بمحاصرة القصر، وصاحَ في رجاله. وقال لهم: انهزمَ ابنُ رشيد ونريدُ أن نعملَ مناورةً خارجَ البلدةِ.

واستبشرَ رجالُه وخرجوا للمناورة وهم قُرابةُ ألف من الرجال.

وبعد الخروج كشفَ الملكُ عبدُ العزيز قصدَه الحقيقيَّ، وأمرهم بالزحف إلى قصر ابن عقيل.

إنه عقل محاربٍ، وقلبُ مقاتلٍ، ودهاءُ قائد، يجمعُ ذكاء أمة وفطانة قبيلة.

وحين علمَ رجالُ الملك عبد العزيز بالخُطَّة تردَّدوا؛ لأنهم لم يكونوا متأهِّبين للرحيل، ولم يكن لديهم شيءٌ من الماء والزاد، وهم في الساعة الأخيرة من النهار، والمسافةُ أمامَهم لا تقل عن عشرين ميلاً.

---

(١) الميل: ١٦٠٩ م.

وأدرك الملك عبدُ العزيز تردُّدَ الرجال، وعرَف حيرةَ الأنصار، فخطبَهم مُحَرِّضاً، وكلَّمَهم مستنهضاً، ثم قال: أنا واحد منكم، أنا مثلكم، أنتم ماشون وأنا ماشٍ، أنتم حفاةٌ وأنا والله لا أنتعل. هذا نعلي، هذه ذلولي.

ووضع النعلَ في الخُرْج[1]، وألقَى حبلَ الذلول على غاربه. ثم مشى أمامهم حافياً، وانطلق أمامهم مهرولاً، وسار الرِّجال وراءَه متحمِّسين وهم مشاة على أقدامِهم؛ إخفاءً لحركتهم.

هذه هي القيادةُ، وهذه هي الزعامة.

ووصلوا إلى القصر قبلَ نصف الليل بساعة، وأرادَ الرجالُ الهجومَ على ابن رشيد في ذلك الحين، فمنعَهم الملكُ عبدُ العزيز؛ لأنه يعلمُ بما حلَّ بهم من التعب والجوع.

ودخلُوا القصرَ، وكان صاحبُه من المخلصينَ للملك عبد العزيزِ وأقفلوا الأبوابَ، وناموُا بقيةَ ليلتهم.

واتضحَ لابن رشيد أنَّه لن يستطيعَ احتلال القصر، فشدَّ رحالَه بمجموعته التي تقدرُ بخمسةَ عشرَ ألفاً من عرب وأتراك.

(١) الخُرْج: هو كيس يُوضع فوق ظهور الإبل لحمل بعض الأمتعة.

وتركَه الملكُ عبدُ العزيز، حتى أكملَ تحميلَ معدَّاته ومُؤنه، ومن ثَم مشى ابنُ رشيد، وتحرَّك بهذه الجموع.

وجمعَ الملكُ عبدُ العزيز ما في القصر من خيل، وخرجَ بها تتبعُها المُشَاةُ، وظلَّ يتحيَّنُ الفرصةَ للمفاجأة، ويهتبلُ الوقتَ للمباغتة.

وأناخَ ابنُ رشيد في وادي الرّمة، ونصب مدافعه، وما لبثَ أن باغتَه الفرسانُ السعوديونَ بقيادة أسدهم الملك عبد العزيز، وتقارعَ الفريقان حتى منتصف النهار، وتقهقرَ الفرسانُ السعوديونَ، وتراجعَ رجالُ الملك عبدَ العزيز.

وبينما الملكُ البطلُ ينظرُ بمنظاره ويرقبُ المعركةَ إذ دنا منه اثنان من رجاله، أحدُهما محمد أبو شيبة رئيس بلدة حوطة بني تميم، والثاني ابن له.

فقال أبو شيبة: يا عبدَ العزيز ماذا تنتظر هنا؟ لماذا لا نمشي ونهاجمُهم؟

مشاعرُ الرجال المخلصينَ، والأنصار المحبينَ، والأبطال المدافعينَ.

قال الملكُ: تريَّثْ يا أبا شيبةَ، ولا تتعجلْ؛ فالوقتُ لم يحن بعدُ.

قال أبوشيبةَ: سوف أنطلقُ أنا وابني؛ نحنُ نريد الجنَة، نريدُ الدفاعَ وحمايةَ الأمة من الظَّلَمة.

مناقشةٌ ومصارحةٌ، ومحاورةٌ ومجادلةٌ، وحبٌّ وولاءٌ، وتضحيةٌ وفداءٌ.

وانطلقَ الرجلان، واخترقَا مراميَ الرصاص، والمعركةُ دائرةٌ، وأدركا بيوت حرب ابن رشيد، فقطعا أطنابَها بسيفيهما .

إنها البطولة، إنها الشجاعة، وإنها الإرادةُ.

وشاهدَ السعوديونَ الرجلين، ورأوُا البيوتَ تسقطُ، فعلا صياحُهم واشتدَّتْ حماستُهم، وتسابقُوا للموت والمنازلة، وكانَ عبدُ العزيز أسبقَهم، وكانتْ معركةٌ طاحنةٌ، اشتدَّ الضغطُ فيها على عساكرِ التركِ، فتفرَّقُوا مولّينَ، وأدبَروا منهزمينَ.

وجرى ابنُ رشيد خلفَهم مهزوماً، وتبعَهم بقيةُ رجاله تاركينَ وراءَهم ما حملوه من عدَّةٍ وعتادٍ، وأموالٍ وأرزاقٍ، وإبلٍ وماشيةٍ، وفرشٍ وثيابٍ.

واستمرَّ رجالُ الملك عبد العزيز عشرة أيامٍ يجمعون ما تركَ ابنُ رشيدٍ وعساكرُ الترك في ساحةِ الوغَى وميدانِ المعركة.

ووجدُوا بينَ تلكَ الأحمال صناديقَ من الذهب، فحملوها إلى عنيزةَ، مقرِّ الملك عبد العزيز في ذلك الوقت، ووزَّعها الملكُ عبد العزيز على رجاله كسائر الغنائم. وكانتْ معركةً حاسمةً، وميداناً

أنهى الأمرَ، وحسمَ الموقفَ لصالحِ الملك عبد العزيز.

وتُعْرَفُ هذه المعركةُ بوقعة الشنانة، وكانت يومَ ١٨ من رجب عام ١٣٢٢هـ، الموافق ٢٩ سبتمبر (أيلول) ١٩٠٤م.

وهي المعركة التي حسمت الموقف لصالح الملك عبد العزيز، وقضتْ على النفوذ التركي، وتضاءلَ بعدَها شأنُ ابن رشيد؛ حيثُ رحل بعدَ هذه المعركة إلى قرية تسمَّى الكهفةَ، من قرى حائل، وباتَ يلملم شَعَثَهُ ويكاتب الأتراكَ، ويرقبُ ما يصنع الملكُ عبدُ العزيز.

أما الملكُ المنتصرُ فقدْ برهنَ لخصومه وأصدقائه أنه قائدٌ بطلٌ، وله شعبيةٌ وقبولٌ، ولديه رأيٌ ونظرٌ، وأنه صلبُ الشكيمة، مَنيع الحِمَى، مرهوبُ الجانب، وأنه سياسيٌّ عبقريٌّ، ومحاربٌ ألمعيٌّ.

ولهذا دخلَ في مفاوضات مع الأتراك، ورغبَ في صدِّهم عن بلاده، ومسالمتهم وتحييدهم؛ فقد عرفوا دهاءَه ونبوغَه، وأدركوا فطنتَه وقوتَه، وتوصَّل معَهم إلى بعضِ الحلول.

وساء الخصم تفاهمُ الملك عبد العزيز معَ الأتراك؛ فهو يَنشُدُ عونَهم، ويطلبُ دعمَهم، وصارَ يشنُّ الغارات من الكهفة على القبائل؛ ليحصلَ على الغنائم، ويظهرَ بمظهر القويِّ، ثمّ سيّر سرية

إلى الرسِّ، فاستولَتْ على البلدة، ثمَّ ظل يغيرُ على أطرافِ بريدةَ، ويناوشُ حاميةَ الملك عبدِ العزيز.

أمّا الملكُ عبدُ العزيز فبعدَ أن كسرَ شوكةَ ابن رشيد، وتفاوضَ مع الأتراك، عادَ ينجدُ حاكمَ قطَر، الشيخَ قاسمَ بنَ ثاني، الذي طلبَ عونَه على قَمع ثورة داخلية نشبَتْ في بلاده، ثُمَّ عادَ الملكُ عبد العزيز من قطرَ إلى الرياض، وقلبُه معَ القصيم وعينُه نحوَ ابن رشيد، وزحفَ إلى القصيمِ لَصدِّ ابن رشيد عنها.

وفي السادسَ عشرَ من صفَر عام ١٣٢٤هـ، الموافق ١٤ من أبريل (نيسان) عام ١٩٠٦م تمت المنازلةُ التي حسمَت الموقفَ معَ ابن رشيد.

فقدْ نزلَ ابنُ رشيد في مكان يسمَّى روضة مهنًّا بالقرب من بريدةَ، وفيهَا التقَى الفريقان بقوة متقاربة لا يزيدُ أحدُهما على ألفَيْ مقاتل، إلا أن خيالَة ابن رشيد كانوا أكثرَ، وحينَ اشتدَّ القتالُ تقهقرَ أتباعُ ابن رشيد الذين أخذتهم المفاجأةُ، فاحتَلَّ أتباعُ الملك عبد العزيز مكانهم، وبينما كان الأمير عبدُ العزيز بن رشيد يصولُ ويجولُ على حصانه محرِّضاً رجاله إذا به يصبح فجأةً بينَ رجال الملك عبد العزيز، فقد كانَ يحملُ رايتَه رجلٌ يُسمَّى الفُريخ، وكانَ رجالُ الملك عبد العزيز قد

أبعدوه عن مكانه في المعركةِ، ورفعوا الراية السعوديةَ.

وجاء ابنُ رشيد نحوَ الراية مسرعاً وهو لا يميزُ من شدة العجاج وظُلمة الليل، وجَعل يصيحُ: مِنْ هَانَ يالفريخ..! من هان يالفريخ...، وأين الفريخ؟

وعرفَ رجالُ الملك الصوتَ فصاحُوا: ابن رشيد يا طَلاَّبته، وقضوا عليه، وانتهت المعركة، وكانَ عمرُه آنذاك نحو خمسينَ سنة.

وصاحَ منادي الهزيمةِ في الجيش الرشيديِّ، وفرَّ أتباعُه، وتعقَّبَهم رجالُ الملك عبدَ العزيز، وجاؤوا للملك بخاتمِ ابنِ رشيدٍ وسيفه.

وهكذا أسدلَ الستارُ على الخصم العنيد الذي قاوم الملكَ عبد العزيز بشدة.

وفي الجزء القادم سنتناول الخصوم

وقد تحالفوا عليه